الدَّارُ الآخِرَةُ

(٤)

طُولُ الأَمَلِ وكَيفِيةُ العِلاَجِ

الشيخ/ندا أبو أحمد

الدَّارُ الآخِرَة

طُولُ الأَمَلِ وكَيْفِيَّة العِلَاج

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

مقدمة

الناظر في أحوال الناس اليوم يرى العجب العجاب، حيث انشغل الكثير منهم بالشهوات، وركبوا المنكرات، وأعرضوا عن عبادة رب الأرض والسموات؛ والسبب في هذا طول الأمل، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، ولا يحتاج إلى بيان.

يقول الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: الأمل: رجاء ما تحبه النفس من طول عمر وزيادة غنى، وهو قريب المعنى من التمني. ثم قال: ويتولد من طول الأمل: الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب. (فتح الباري:١١/٥٨٢)

وصدق الحسن البصري-رحمه الله-حيث قال: " **ما أطال عبدٌ الأمل إلا ساء العمل**".

(الزهد للحسن البصري: ص ٨٢) (قصر الأمل: ٨٢)

وصدق الحسن البصري... فطول الأمل سبب لقلة الطاعة، والتكاسل عن العبادة، وقسوة القلب، وتأخير التوبة، واتباع الهوى، وكثرة المعصية، والحرص على الدنيا، والغفلة عن الموت، وما بعده من شدائد وأهوال، وربما الموت على المعصية؛ وهذا هو عين الشقاء.

يقول مالك بن دينار-رحمه الله-:

"**أربع من الشقاء: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا** [1] ".

ويقول الفضيل بن عياض -رحمه الله-:

"**إن من الشقاء طول الأمل، وإن من النعيم قِصَر الأمل**".

وقصر الأمل هو الاستعداد للرحيل في أي وقت وحين، فلا ترى صاحبه إلا متأهبًا لعلمه بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب.

ومَثَلُ مَن يطيل الأمل ويقعد عن العمل، والآخر المتأهب المستعد، كمثل قومٍ في سفر، فنزلوا قرية، فمضى المتأهب الحازم المستعد فاشترى ما يصلح لتمام سفره، وجلس متأهبًا للرحيل، أما المُفَرِّط فإنه يقول كل يوم: سَأَتَأَهَبُ غدًا؛ حتى أعلن أمير القافلة الرحيل، ولا زاد معه، وهذا حال المؤمن الحازم الذي لا يندم عند مجيء الموت، **بخلاف المُفَرِّط الذي يصرخ ويقول:**

﴿ . . . رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ . . . ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]

١- وروي هذا الحديث مرفوعًا إلى النبي ﷺ وهو عند البزار من حديث أنس، والصحيح أنه حديث مقطوع أي موقوف على مالك بن دينار.

ولقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تُحَذِّر من طول الأمل

وقد بيَّن رب العالمين في القرآن الكريم أن طول الأمل من وساوس الشياطين، **قال تعالى:**

﴿ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥]

قال الحسن البصري-رحمه الله-: "أي زين لهم [الشيطان] الخطايا، ومدَّ لهم في الأمل".

(الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٩/١٦)

فالشيطان يغرر الإنسان، ويعده ويمنيه الخلد، ويشجِّعه على الانغماس في الشهوات، والوقوع في المحرمات، واللهث وراء الملذات؛ **كما قال تعالى عن الشيطان:** ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:١٢٠]

- **ومَن كان هذا وصفه فحاله كحال البهائم.**

قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر:٣]، أي: دعهم يا محمد يعيشوا كالأنعام ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات، ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى.

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في "فتح الباري":

"هذا تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم، وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين".

وصدق الحافظ ابن حجر... فلقد وصف رب العالمين اليهود والمشركين بهذا الوصف المشين.

فقال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦]

يقول "صاحب الظلال" في الآية السابقة:

"ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يُصوِّرها القرآن، صورة تفيض بالزراية، وتتضح بالتحقير والمهانة، **حيث قال رب العالمين:** ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ... ﴾ أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة.. حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام

إنها يهود في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة؛ فإذا وجدت المطرقة؛ نكست وعنت الجباه جبنًا وحرصًا على الحياة... أي حياة، ﴿ ... وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة؛ ذلك لأنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يَحِسُّون أن لهم حياة غير هذه الحياة، وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها، حين تحس النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة". **اهـ.**

– ولا شك أن العبد إذا أمعن النظر بصدق في هذه الصفة المرذولة، والخصلة القبيحة التي اتصف بها اليهود والمشركون، وتَدَبَّر الآية الكريمة؛ فسوف يقوده ذلك إلى قصر الأمل، والزهد في الدنيا الفانية، والتسابق إلى الدار الآخرة الباقية الخالدة.

وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٨]

قال ابن رجب –رحمه الله– في "لطائف المعارف" (ص ٣٥٣) عند ذكر هذه الآيات:

"اعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة؛ فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيَقَّن الموت وأيس من الحياة؛ أفاق من سكرته بشهوات الدنيا؛ فندم حينئذ على تفريطه ندامةً يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحًا؛ فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذَّر الله في كتابه عبادَه من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح، ثم ذكر الآيات السابقة ".

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١]

قال ابن كثير–رحمه الله– في "تفسيره": " كل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا؛ ليستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات.. كان ما كان، وأتى ما هو آت". اهـ.

ومثل من يؤجل التوبة والإقلاع عن الذنوب كمثل من أراد أن يقلع شجرة من فناء داره فوجدها راسخة الجذور في الأرض ثابتة، فقال: أعود إليها في العام المقبل فأقتلعها، وما علم هذا المسكين أن الشجرة في العام المقبل سوف تزداد رسوخا في الأرض وسوف يزداد هو ضعفًا، كذلك شجرة الشهوات كلما استمر العبد في المعاصي وأكثر منها تزداد رسوخا في أرض قلبه، ويزداد هو بالمداومة على المعاصي ضعفًا، فلا يزال العبد يزداد محبة للشهوات وضعفا عن الإقلاع عنها حتى تنزل عليه الرسل فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت.

ذكر ابن الجوزي في كتابه "تلبيس إبليس: ص١٤٥": باب "ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل" فقال-رحمه الله-:"

" كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام فلا يزال إبليس يثبط ويقول لا تعجل، وتمهَّل في النظر، فيسوِّفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوَّفه، وكم ساعٍ إلى فضيلة ثبَّطه، فلربما عزم الفقيهُ على إعادة درْسِه فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي فقال له: عليك وقت، ولا يزال يحبِّب الكسل، ويسوف العمل، ويسند الأمر إلى طول الأمل، فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم، والحزم: تدارك الوقت، وترك التسوُّف والإعراض عن الأمل، فإن المخوف لا يؤمَن، والفوات لا يبعث، وسبب كل تقصير في خير، أو ميل إلى شر: طولُ الأمل، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير إلا أنه يعدُ نفسَه بذلك، ولا ريب أنه من أمَّل أن يمشي بالنهار: سار سيرًا فاترًا، ومن أمَّل أن يصبح عمل في الليل عملًا ضعيفًا، ومن صور الموت عاجلًا: جدَّ، وقال بعض السلف: أُنذركم "**سوف**" فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل: كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهبًا للرحيل، وقال المفرط سأتأهب فربما أقمنا شهرًا فضرب بون الرحيل في الحال ؛ فاغتبط المحترز، وندم الآسف المفرط، فهذا مثلُ الناس في الدنيا، منهم: المستعد المستيقظ فإذا جاء ملك الموت لم يندم، ومنهم: المغرور المسوف: يتجرع مرير الندم وقت الرحلة.

فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوَّه لا يفتر عنه، فإن أفتر في الظاهر بطن له مكيدةً، وأقام له كمينًا ونحن نسأل الله-عز وجل- السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان وشر النفوس والدنيا إنه قريب مجيب. أهـ.

وصدق أنس ﷺ حيث قال: **" التسويفُ جند من جنود إبليس عظيم، طالما خَدَع به ".**

(قصر الأمل: ص١٤١)

ولقد بيَّن رب العالمين في كتابه الكريم أن طول الأمل يورث قسوة القلب

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]

وقسوة القلب هي من أشد الأمراض فتكًا بالإنسان، وإن أشد المصائب قبل الموت هو موت القلوب، وموت القلوب إنما يكون بالحرص على الدنيا الفانية والإعراض عن الباقية، وليعلم الإنسان أنه كلما ازداد حرصًا على الدنيا، كلما ازداد بعدًا عن الله تعالى ويقسو قلبه، ويطيل الأمل، فيكسل عن العمل وينسى الآخرة.

وقد رُوي في الحديث الذي أخرجه الحاكم: **" اقتربت السَّاعَة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصًا، ولا يزدادون من الله إلا بُعْدًا ".**

- **حديث النبي ﷺ عن طول الأمل والتحذير منه:**

أخرج البيهقي في "الزهد الكبير" عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"يهرمُ[1] ابن آدم ويبقي معه اثنتان: الحرص والأمل".** (قال الحافظ العراقي: "رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بإسناد صحيح)

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها والحب لها، والإعراض عن الآخرة.

وأخرج عبد الغني بن سعيد في "الإيضاح" عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"الشيخ يَضْعُفُ جسمهُ، وقلبه شابٌّ على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال".

(الصحيحة:١٩٠٦) (صحيح الجامع:٣٧٤٩)

وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل".

وجاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا ص ٣٧ عن أبي عثمان النهدي قال:

"قد بلغت ثلاثين ومائة سنة، فما مني شيء إلا قد عرفتُ فيه النقصان إلا أملي، فإنه كما هو".

ألا تُغر بالأمل الطويل ... وليس إلى الإقامة من سبيل
فدع عنك التعلل بالأماني ... فما بعد المشيب سوى الرحيل
أتأمن أن تدوم عليك الليالي ... وكم أفنيْنَ قبلك من خليل
وما زالت بنات الدهر تُفني ... بني الأيام جيلًا بعد جيل

١- يهرم: يكبر ويشيب.

باقة من أحاديث النبي ﷺ وفيها الحث على قصر الأمل وأن الأمر أعجل مما نتصور

أخرج الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-: **" أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فذكر السَّاعَة، رفع صوته واحمرت وجنتاه، كأنه منذر جيش يقول: صَبَّحْكم ومَسَّاكم، ثم يقول: بُعِثتُ أنا والسَّاعَة كهاتين ويقرن بين أُصبعيه السبابة، الوسطى".**

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن الحبيب النبي ﷺ قال:

"كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له".

وعند الترمذي بلفظ: **" كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه، وأصغى سمعه، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله، وما تأمرنا؟، قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ".** (السلسلة الصحيحة: ١٠٧٩)

صاحب القرن: إسرافيل عليه السلام المُوكَّل بالنفخ في الصور لنفخة الصعق، ونفخة البعث والقيام من القبور.

وفي رواية عند الحاكم في "المستدرك" من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن طرف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش، كأن عينيه كوكبان دريان مخافة أن يؤمر قبل أن يرتدَّ إليه طرفه". (السلسلة الصحيحة: ١٠٧٨)

- **عمر الدنيا مهما طال فهو قصير:**

١ - أخرج الإمام أحمد بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: **" لم يتبقَّ من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وكانت الشمس على رءوس الجبال، أوشكت الشمسُ أن تَغْرُبَ ".** (صححه أحمد شاكر -رحمه الله-)

٢ - أخرج ابن أبي الدنيا" في "قصر الأمل" عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال:

"خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السَّعَف، فقال: ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا إلى ما مضي منه ". (قال الحافظ العراقي -رحمه الله-: إسناده حسن)

٣ - وعند الإمام مسلم: **" لم يبقَ من الدنيا إلا كَصبَابَةٍ ".**

والصبابة: بقية الماء في نهاية الإناء، أو في الكوب، لم يبق إلا كصبابة يتصابّها صاحبها، أي يدلقها صاحبها.

٤- ومرَّ ﷺ على قوم يصلحون خُصًّا لهم قد وَهَى، فقال لهم النبي ﷺ: "الأمر أعجل من ذلك".

فاعلم أخي الحبيب... أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة.

والليل مهما طال لابد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لابد من دخول القبر.

فكم ممن راح في طلب الدنيا أو غدا؛ أصبح من سكان القبور غدًا.

واعلم أخي الحبيب... أن الدنيا دار ممر، والآخرة هي دار مقر، فخذوا من ممرِّكم لمقركم، ولا تفضحوا أستاركم عند مَن يعلم أسراركم.

جاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا أن النخعي -رحمه الله- قال:

"يا أيها الناس، إن الدنيا جُعلت قليلًا، وإنه لم يبق إلا قليلٌ من قليلٍ"

كان هناك شيخ كبير بلغ من العمر ٩٨ عامًا يتحدث عن نفسه فيقول:

"كأني دخلت من هذا الباب؛ وخرجت من الباب الآخر".

واعلم أخي الكريم... أنك عندما تولد فإنه يُؤذَّن في أذنك اليمنى، وتقام الصلاة في أذنك اليسرى، وعندما تموت يُصلَّى عليك، فكأن حياتك هي ما بين الأذان والإقامة؛ **قال تعالى:**

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

[يونس:٤٥]

وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات:٤٦]

وقال تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾

[المؤمنون: ١١٢، ١١٣]

فمهما طال عمر الإنسان في هذه الدنيا فهو قصير، مادام الموت هو نهاية كل حي، وعند الموت تنكمش الأعوام والعقود التي عاشها الإنسان؛ حتى لكأنها لحظات مرت كالبرق الخاطف.

مرت سنون بالوصال وبالهنا ... فكأنها من قصرها أيام

ثم انثنت أيام هجر بعدها ... فكأنها من طولها أعوام

ثم انقضت تلك السنون ... وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ما مضى من الدنيا أحلام، كنائمٍ رأى مسيرة حياته في لمح البصر ثم استيقظ، ذهبت الأيام بآلامها وآمالها بشدتها وقسوتها، لكن بقي الحساب.

- ومما يدل على قصر الأمل أيضًا المبادرة بكتابة الوصية، فإنه لا يدري لعل الموت يفاجئه قبل أن يوصي، وكثير منا لم يكتب وصيته إلى الآن، وهذا إن دل فإنما يدل على طول الأمل.

أخرج البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال:

" ما حق امرئ مسلم له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده ".

- *وفي رواية أخرى في "الصحيحين":* "ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يُوصي به؛ إلا وصيته مكتوبة عند رأسه ".

قال ابن عمر -رضي الله عنهما-:

"ما مرَّت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك؛ إلا وعندي وصيتي ".

وكان بكر بن عبد الله المزني -رحمه الله- يقول:

"إن استطاع أحدكم ألا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب، فليفعل، فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا، ويصبح في أهل الآخرة ".

وأخرج الطبراني من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

"صَلِّ صلاة مودع ".

وكان بكر بن عبد الله المزني -رحمه الله- يقول:

"إذا أردت أن تنفعك صلاتك، فقل: لعلِّي لا أُصلِّي غيرها ". (قصر الأمل: ص ٨٢)

وأخرج الطبراني عن رجل من بني النخع قال: "سمعت أبا الدرداء حين حضرته الوفاة قال:

"أُحدِّثكُم حديثًا سمعته عن رسول الله ﷺ، سمعته يقول: اُعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، واعدُد نفسك في الموت، وإيَّاك ودعوة المظلوم فإنها تُسْتَجابُ ".

• وكان الحبيب النبي ﷺ دائمًا ما يُذكِّر بالموت حتى لا يطيل الإنسان منا الأمل فيسئ العمل

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أُبي بن كعب ﷺ قال:

" كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل؛ قام فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه... جاء الموت بما فيه ". (الصحيحة: ٩٥٢)

• **ولقد حثَّ النبي ﷺ على قصر الأمل.**

وهذا ما نراه جليًا في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عمر-رضي الله عنهما- قال:

"أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"

- وفي رواية: **" فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدًا ".**

وكان ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: **" إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك ".** ***زاد أحمد والترمذي:*** **"وعدَّ نفسك من أهل القبور".** (صحيح الجامع: ٤٥٧٩)

وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتَّخذَ الدنيا وطنًا وسكنًا يطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر.

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء واتباعهم، قال ﷻ حاكيًا عن مؤمن آل فرعون:

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]

وقال المسيح عليه السلام لأصحابه: **" اعبروها ولا تعمروها".**

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا، فينبغي للمؤمن أن يكون فيها على حالين: -

الأولى: أن يكون كأنه غريب يقيم في بلد غربة، همّه التزود للرجوع إلى وطنه.

قال أبو الدرداء لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **" يا عمر أتذكر حديثًا حدَّثنا رسول الله ﷺ: ليكن زاد أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ".**

الثانية: أن يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة؛ فلهذا وصَّى النبيُ ﷺ ابنَ عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين؛ فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه، فلا همَّ له إلا التزوُّد بما ينفعه للعودة إلى موطنه الأصلي وهو الجَنَّة. فالله لما خلق آدم وأسكنه هو وزوجه الجَنَّة، ثم أُهْبِط منها؛ وعده بالرجوع إليها وصالحي ذريتهما؛ لذا تجد أن المؤمنين في شوق إليها، فالمؤمن أبدًا يحنُّ إلى وطنه الأول، ***كما قال القائل:***

كم منزل للمرء يألفه الفتي ... وحنينه أبدًا لأول منزل

ويقول ابن القيم -رحمه الله-:

فحي على جنات عدنٍ فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

- **فعلى المؤمن أن يعي هذه الحقيقة: أنه في الدنيا كالغريب وأنه راحل عنها**

وقد مر بنا قول الحبيب ﷺ لابن عمر-رضي الله عنهما-: **" كن في الدنيا كأنك غريب ".**

وكان الحسن البصري -رحمه الله- يقول: **"المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا يُنَافِسُ في عزِّها، له شأن وللناس شأن".**

وكان عطاء السلمي -رحمه الله- يقول في دعائه: **"اللهم ارحم في الدنيا غربتي، وارحم في القبر وحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يديك".**

أخرج الترمذي والحاكم وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قَالَ[1] في ظل شجرة في يوم صائف، فراح وتركها".

- ***وفي رواية:*** **"مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها".**

(الصحيحة: ٤٣٨) (صحيح الجامع: ٥٦٦٨)

- ***وفي رواية:*** **"مالي وللدنيا؟ وما للدنيا ومالي! والذي نفسي بيده، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة من النهار، ثم راح وتركها ".**

(الصحيحة:٤٣٩) (صحيح الجامع: ٥٦٦٩)

- **وبيَّن النبي ﷺ أن الهلاك والشقاء في طول الأمل.**

فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عمرو-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:

" صلاحُ أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل". (صحيح الجامع: ٣٨٤٥)

- ***وفي رواية أخرى عند ابن أبي الدنيا:*** **" نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل".** (صحيح الجامع: ٩٧٤٦)

قال بعض الحكماء: **" احذر طول الأمل، فإنه سبب هلاك الأمم". "وإياك من طول الأمل، فإنه يمنع خير العمل".**

وكان محمد بن واسع -رحمه الله- يقول: **"أربعة من الشقاء: طول الأمل، وقسوة القلب، وجمود العين، والبخل".** (صفة الصفوة:٣/٣٦٦) (قصر الأمل: ص ٧٦)

قال القرطبي -رحمه الله-: "طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن فتاك، ومتى تمكَّن من القلب فسد وصعب علاجه، ولم ينجح فيه دواء، وهو الداء الذي أعيا الأطباء، ويَئِسَ من شفائه الحكماء والعلماء". اهـ

---

١ - قال: أي نام وقت القيلولة.

وقد روي عن الحبيب النبي ﷺ أنه قال: **" أخسر الناس صفقة: رجل أخلق يده في أمانيه، ولم تساعده الأيام على تحقيق أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقدم على الله بغير حجة".** (أخرجه ابن النجار)

- **احذر طول الأمل فالموت يأتي بغتة.**

أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال: **"خطَّ رسول الله ﷺ خطًا وقال: هذا الإنسان، وخطَّ إلى جنبه خطًّا وقال: هذا أجله، وخط خطًّا آخر بعيدًا منه، فقال: وهذا الأمل، فبينما هو كذلك إذا جاءه الأقرب".**

وأخرج الترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

"خطَّ النبي ﷺ خطًا مربعًا، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُطوطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجلُهُ محيط به – أو قد أحاط به – وإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا ". (صحيح الجامع: ١٢١١)

- **فلهذا ولغيره كان النبي ﷺ أخوف ما يخاف علينا طول الأمل.**

فقد رُوي في الحديث الذي أخرجه الحاكم عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"إن أخوفَ ما أخافُ على أمتي: الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فيُنْسي الآخرة ". (والصحيح أن هذا الحديث موقوف على عليٍّ بن أبي طالب وهو عند البخاري معلقًا)

فطول الأمل هو سبب شقاء كثير من الناس؛ حيث يخدعهم الشيطان فيصوِّر لهم أن أمامهم عمرًا طويلا وسنين متعاقبة؛ يبنون فيها آمالًا شامخة، فيجمعون همتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال، وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت، وإذا ذكره يومًا تبرَّم منه؛ لأنه – في ظنه – يُنَغِّص عليه لذاته ويُكَدِّر عليه صفو عيشه.

فأين من تعب ولَهَا؟ أين من غفل وسَهَا؟ دهاه أفظع ما دهى؟ وحُطَّ ركنه فوَهَى، ذهبت لذةُ ذنوبه وحُبِس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

- **السلف وحديثهم عن قصر الأمل:**

أخرج البخاري معلقًا عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: **" إن أخوفَ ما أخافُ عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مُقبلة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، ولكل واحدٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليومَ عملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل".**

(وأخرجه الإمام أحمد في الزهد، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد الله بن المبارك في كتابه الزهد والحلية)

وعن أنس ﷺ قال: **"التسويفُ جند من جنود إبليس عظيم، طالما خَدَع به"**(قصر الأمل: ص١٤١)

وعن أبي هريرة ﷺ قال: **"تعوَّدوا الخير، فإن الخير عادة، وإيَّاكم وعادةُ السُّوَّاف من سَوْفٍ[1] أو من سَوْف ".**

(قصر الأمل: ص ١٤٣ لابن أبي الدنيا، وأخرجه وكيع بن الجراح في كتابه الزهد، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه).

قال محمود بن الحسن:

والمرءُ مرتهن بسوفَ وليتني	وهلاكُه في السَّوْف واللَّيْت
مَن كانت الأيام تسير به	فكـأنه قد حلَّ بالمـوت
لله درُّ فتىً تدبَّر أمره	فغدا وراح مبادرَ الفوت

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "هذا المرء، وهذه الحُتوف حوله شوارع إليه، والهرمُ وراء الحتوف، والأملُ وراء الهرم، فهو يأمل، وهذه الحتوف شوارع إليه، فأيها أُمِرَ به أخذه، فإن أخطأته الحتوفُ قتله الهرم، وهو ينظر إلى الأمل" (قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص ٣٣)

وجاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا كذلك (ص٦٧) عن يزيد بن شريك التيمي قال: **"خرجنا حُجَّاجًا، فوجدنا أبا ذر بالرَّبْذَة (٢) قائمًا يُصلِّي، فانتظرناه حتى فَرِغ من صلاته، ثم أقبل علينا، فقال: هلمَّ إلى الأخ الناصح الشفيق ثم بكى، فاشتد بكاؤه، وقال: قتلني حبَّ يوم لا أدركه! قيل: وما يوم لا تدركه؟ قال: طول الأمل".**

وكان سلمان الفارسي ﷺ يقول: **" أُصْبِح على وَجَل (خوف)، وأُمْسِي على وجل".**

(قصر الدنيا: ص ١١٢ لابن أبي الدنيا)

١- السوف: الصبر والمطل، يقال: فلانٌ يقتات السوف، أي: يعيش بالأماني.
٢- الرَّبْذَة: من قرى المدينة، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز..

وجاء في كتاب "الزهد" للإمام أحمد (٢/ ٩٠) و"حلية الأولياء" (١/ ٢٠٦)، و"قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (ص٤٠، ٤١)، عن سلمان الفارسي ﷺ قال:

"ثلاث أعجبتني، ثم أضحكتني! مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملءَ فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راضٍ عنه، وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني، فراقُ محمدٍ ﷺ وحزبه والأحبَّة، وهول المطلع، والوقوف بين يدي ربي، لا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار".

وجاء في كتاب "التذكرة" للقرطبي -رحمه الله- (ص٨٧) هذا القول، ولكن عن أبي الدرداء ﷺ حيث قال: " أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فِيه، وهو لا يدري أأرضي الله أم أسخطه؟!، وأبكاني فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار".

وكأن ابن آدم من كثرة ما أمدَّ له الشيطان في الأمل، وأنساه بغتة الأجل، وأنساه قرب الموت والرحيل، وكأنه بمأمن من أن ينتقل إلى الرب الجليل، وأنه راحل إليه، وأنه واقف بين يديه ﷻ.

ويُروى عن أبي الدرداء ﷺ أنه قام على درج دمشق فقال: "يا أهل دمشق، ألا تسمعون من أخٍ لكم ناصح؟ إن مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرًا ويبنون مشيدًا، ويأملون بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبُنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا [زورا] هذه عاد قد ملأت البلاد أهلًا ومالًا وخيلًا ورجالًا، فمَن يشتري منِّي اليوم تركتهم بدرهمين، وأنشد يقول:

يا ذا المؤمل آمالًا وإن بَعُدت	منه ويزعم أنه يحظى بأقصاها
أنَّى تفوز بما ترجوه ويْكَ	وما أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها

وأخرج أبو نعيم عن أبي الدرداء ﷺ قال:

" يا أهل دمشق، استمعوا إلى قول أخٍ لكم ناصح؛ فاجتمعوا إليه فقال: "مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون؟ فإن مَن كان قبلكم بنوا مشيدًا، وأملوا بعيدًا، وجمعوا كثيرًا، فأصبح أملهم غرورًا، وجمعهم بُورًا، ومساكنهم قبورًا ".

وفي "حلية الأولياء" بلفظ آخر وفيه:

" يا أهل دمشق، أنتم الإخوان في الدين، والجيران في الدار، والأنصار على الأعداء، ما يمنعكم من مودَّتي، وإنما مؤنتي على غيركم؟ مالي أرى علماءكم يذهبون، وجُهَّالكم لا يتعلَّمون؟ وأراكم قد أقبلتم على ما تُكفَّل لكم به، وتركتم ما أُمِرْتُم به؟ ألا إن قومًا بنوا مشيدًا، وجمعوا كثيرًا، وأملوا بعيدًا، فأصبح بُنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا، وجمعهم بورًا، ألا فتعلَّمُوا وعلِّمُوا، فإن العالم والمتعلِّم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما". (حلية الأولياء: ٢١٣/١)

وقال أبو الدرداء ﷺ: **" ابن آدم طأ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام؛ فكلما ذهب يومٌ ذهب بعضك، ابن آدم: إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك".**

(الزهد الكبير للبيهقي: ص ٢٣٣)

وهذا ما كان يقوله لقمان لابنه حيث قال له: **"أي بني، إنك من يوم نزلت إلى الدنيا استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقبل عليها أقرب من دار تبتعد عنها".**

وقال الحسن البصري -رحمه الله-: **" يا ابن آدم، اعلم أنك أيام معدودة، فإذا مرَّ يومٌ مرَّ جزءٌ منك، وإذا مرَّ الجزء فيمرُّ الكل، وأنت تعلم فاعمل".**

وصدق القائل حيث قال:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يومٍ مضي يُدنِي من الأجل
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا ... فإنما الربح والخسران في العمل

فمن جهلنا بقيمة الوقت (العمر) نفرح بمغيب شمس كل يوم، ونحن لا ندرك أن هذا نهاية يوم من أعمارنا لن يعود أبدًا؛ صحائف طُويت، وأعمال أُحصيت، وأنفاس تُقرِّبنا إلى الأجل وتبعدنا عن الأمل.

جاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا أن رجلًا أنشد هذه الأبيات عند بعض الخلفاء:

حياتك أنفاس تُعَدُّ فكلما ... مضي نَفَسٌ منها انتقصتَ له جزءًا
فتصبح في نقص وتُمسِي بمثله ... فمالك معقول تحس به رزءًا
يميتك ما يحسُّك في كل ساعة ... ويحدوك حادٍ لا يريد بك الهُزءا

وكان الحسن البصري يقول أيضًا:

"الدنيا ثلاثة أيام، أما أمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلك لا تدركه، فاليوم لك فاعمل فيه".

وكان أُويس -رحمه الله- إذا قيل له كيف الزمان عليك؟ قال:

"كيف الزمان على الرجل إن أمسى يظن أنه لا يصبح، وإن أصبح ظنَّ أنه لا يُمسِي، فمبشَّر بالجنة أو النار".

والتقى حسان بن أبي سنان وحوشب، فقال حوشب لحسَّان:

"كيف أنت يا أبا عبد الله؟ قال: ما حال مَن يموت، ثم يبعث، ثم يحاسب؟ أصبحت قريب أجلي، بعيد أملي، مسيء عملي".

وقيل للربيع بن خُثيم -رحمه الله-:

"كيف أصبحت يا أبا يزيد؟ قال: "أصبحنا ضعفاء ومذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا".

وقيل لإبراهيم بن عيسى اليشكري: "كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في أجل منقوص، وعمل محفوظ، والموت في رقابنا، والقيامة من ورائنا، ولا ندري ما يفعل الله بنا". (الزهد الكبير: ص ٢٤٩)

قال رجل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنُّك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة".

وصدق القائل حيث قال:

نسيرُ إلى الآجـــال في كل لحظة ... وأيـامنـــا تُطْوى وهن مراحلُ
وما أقبح التفريط في زمن الصبا ... فكيف به والشيب للرأس شاعلُ
فارحل من الدنيـــا بزادٍ من التقى ... فـعمـرك أيـــام وهـن قـــلائـلُ

وكان محمد بن واسع إذا أراد أن ينام، قال لأهله قبل أن يأخذ مضجعه:

"أستودعكم الله، فلعلها أن تكون منيَّتِي التي لا أقوم فيها!" فكان هذا دأبه إذا أراد النوم!

(جامع العلوم والحكم: ٢٦٣/٢) (قصر الأمل: ص ١٤٧)

وقال بكر بن عبد الله المزني لرجل يُدعى أبو جميلة ميسرة بن يعقوب الكوفي:

"يا أبا جميلة كيف أنت؟ قال: أنا والله هكذا: كرجل مادٍّ عنقه. والسيف عليها، ينتظر متى تضرب عنقه". (اتحاف السادة المتقين) (قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص ٤٦)

وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص٧٠، ٧١) عن يزيد الرقاشي أنه قال:

"إلى متي نقول: غدًا أفعل كذا، وبعد غدٍ أفعل كذا، وإذا أفطرتُ فعلت كذا، وإذا قدمتُ من سفري فعلت كذا! أغفلتَ سفرك البعيد، ونسيت ملك الموت؟ أما عَلِمتَ أن دون غدٍ ليلةٌ تُخترم فيها أنفس كثيرة؟ أما عَلِمتَ أن دون ملك الموت غير منتظر بك أملك الطويل؟ أما علمت أن الموت غاية كل حي؟ ثم يبكي حتى يبلَّ عمامته، ثم يقول: لو رأيته صريعًا بين أحبابه لا يقدر على ردِّ جوابهم، بعد أن كان جدلًا خصمًا سمحًا كريمًا عليهم؟ أيها المغتر بشبابه! أيها المغتر بطول عمره! ثم يبكي حتى يبل عمامته!". (قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص ٧٨)

وقال بكر بن عبد الله المُزني-رحمه الله-: **"إذا أردت أن تنفعك صلاتُك فقل: لعلِّي لا أُصلِّي غيرها"**. (قصر الأمل: ص ٩٢)

قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- في بعض خطبه:

"إن لكلِّ سفرٍ زادًا لا محالة، فتزوَّدُوا لسفركم في الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدَّ الله من ثوابه وعقابه، ترغبون وترهبون، لا يطولنَّ عليكم الأمل فتقسوا قلوبُكم، وتنقادوا لعدوِّكم، فإنه والله ما بُسِطَ أملُ مَن لا يدري لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يُمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأيت ورأيتم مَن كان بالدنيا مُغْتَرًّا، وإنما تَقَرُّ عينُ مَن وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح مَن أَمِنَ من أهوال القيامة، فأما مَن لا يداوي كَلْمًا، إلا إذا أصابه جارح من ناحية أخرى، فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسرَ صفقتي، وتظهر عوْلتِي، وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين فيه منصوبة، لقد عُنيتم بأمر لو عُنيت به النجومُ انكدرت ولو عُنيت به الجبال لزالت، ولو عُنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أن ليس بين الجنة والنار منزلة؟ وأنكم صائرون إلى أحدهما".

وكتب الأوزاعي-رحمه الله- إلى أخٍ له فقال: **"أما بعد...، فقد أحيط بك من كل جانب، واعلم أنه يُسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والمقام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك به والسلام".**

وقال بعض الحكماء: **"كيف يفرح بالدنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره".**

قال سفيان الثوري -رحمه الله-:

" الزهد في الدنيا: قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء".

(حلية الأولياء:٦/٣٨٦)، (والزهد الكبير للبيهقي:٧٩)

قال داود الطائي -رحمه الله-: "سألت عطوان بن عمرو التيمي:

"قلت ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النَّفَس". (قصر الأمل لابن أبي الدنيا)

وسُئل الإمام أحمد: "أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: قصر الأمل، مَن إذا أصبح قال: لا أمسي".

وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه أنه قال:

"ما نمت يومًا قط فحدَّثتُ نفسي أني أستيقظ منه ".

وقال عون بن عبد الله بن عتبة-رحمه الله-:

" ما أنزل الموت كُنْه منزلته مَن عَدَّ غدًا من أجله، فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يدركه! إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره ".

(صفة الصفوة لابن الجوزي:٣/١٠٣) (قصر الأمل: ص ٥٩)

وجاء في "قصر الأمل"(ص٧٥) عن عتبة بن عبد الله-رحمه الله- قال:

" قالوا لعون بن عبد الله: ما أنفعُ أيامِ المؤمن له؟ قال: يوم يلقى ربَّه، فيُعْلِمه أنه راضٍ، قالوا: إنما أردنا من أيام الدنيا، قال: إن من أنفع أيامه له في الدنيا ما ظَنَّ أنه لا يدرك آخرَه ".

وقال عون بن عبد الله بن عتبة أيضًا كما في "حلية الأولياء" (٤/٢٥١)، و"قصر الأمل" (ص٧٥): "ويْحي! كيف أغفل عن نفسي ومَلَكُ الموت ليس بغافل عني؟! ويحي! كيف أتَّكِلُ على طول الأمل والأجل يطلبني؟!".

وعن أبان بن سُلَيم الصوري، أنه كتب إلى بعض إخوانه فقال:

"أما بعد...، فإنك أصبحت تجدِّد الدنيا بطول أملك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما صرت حديدًا باردًا... والسلام".

وكان الحسن البصري -رحمه الله- يقول: "ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رُئي ذلك في عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل". (الزهد للإمام أحمد: ص ٢٣٦)

وكان الحسن يقول أيضًا:

"هيهات... هيهات، أهلك الناس الأماني، قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين".

وقال الحسن البصري أيضًا: "يا ابن آدم إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغد".

(قصر الأمل: ص ١٤٤)

وقال الحسن -رحمه الله- كذلك: "اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم: ما أَمَلُك؟، قال: ما أتي عليَّ شهرٌ إلا ظننت أني سأموت فيه، فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقالوا للآخر: ما أَمَلُك؟ قال: ما أتت عليَّ جمعة إلا ظننت أني سأموت فيها، فقال صاحباه: إن هذا هو الأمل، فقالوا للآخر: ما أَمَلُك؟ قال: ما أَمَلُ من نَفَسُه في يد غيره؟!

(الزهد للحسن البصري: ص ٨١) (الزهد لابن المبارك: ص ٨٥) (قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص ٢٣)

وقيل للحسن البصري -رحمه الله-: "كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ (كيف حالك؟)، قال: بأشد حال، ما حال مَن أمسى وأصبح ينتظر الموت لا يدري ما يفعل الله به.

وكان إذا أمسى يقول:

وما الدنيا بباقية لحي وما حيّ على الدنيا بباق

وجاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص٢٥٩) عن عبد الله بن المعتز أنه أنشد فقال:

الزهد يُبْلى وآمال الفتى جدد تزيد آماله والدهر يفنيها

ليل وصبح وآجال مقدورة تمضي ونمضي وتطوينا ونطويها

عن إسحاق قال: "قيل لرجل من عبد القيس: أوصي، قال: احذروا سوف" (قصر الأمل: ص ١٤٠)

وجاء في "حلية الأولياء" (٦/٥٥) عن أبي الجلد-رحمه الله- قال:

"وجدت التسويف جندًا من جنود إبليس، وقد أهلك خلقًا من خلق الله كثيرًا"

عن صالح البراء-رحمه الله- قال: "رأيت زُرارة بن أوفى بعد موته في منامي، فقلت: أي الأعمال أبلغ فيما عندكم؟، قال: التَّوكُّل، وقِصَر الأمل. (قصر الأمل لابن أبي الدنيا)

قال مالكُ بن مِغوَل-رحمه الله-: "يُقالُ: مَن قَصر أملُه هان عليه عيشه"

قال سفيان: يعني في المطاعم والملابس. (قصر الأمل: ص ٤٤-٤٥)

وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص٧٢) عن عمر بن ذر قال:

"ابنُ آدم إنما يتعجل أفْرَاحَه بكاذب آماله، ولا يتعجَّلُ أحزانه بأعظم أخطاره".

أضحك سنك طول الأمل ولم يُبْكِ عينك قربُ الأجل

كأنك لم تر حيًّا يُساق ولم تر مَيْتًا على مغتَسل

وقال عبد الله بن ثعلبة الحنفي-رحمه الله-:

"تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصَّار[1]"

(قصر الأمل: ص ٧٤) (الحلية: ٢٥٤/٦) (صفة الصفوة: ٣٨١/٣)

وكما قيل:

ومعجبًا بثياب العيد يقطعها فأصبحت في غدٍ أثواب أكفان

وعن محمد بن أبي توبة قال: " أقام معروفٌ الكرخي الصلاة، ثم قال لي: تقدَّم، فقلت: إنِّي إن صلَّيت بكم هذه الصلاة، لم أصلِّ بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تُحدِّث نفسك أن تصلي صلاةً أخرى؟! نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع خير العمل". (صفة الصفوة: ٣١٩/٢) (قصر الأمل: ص ٨١)

قال حاتم الأصم -رحمه الله-:

"لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر الأمل."

قال الأصمعي -رحمه الله-: "سمعت أعرابيًا يقول: مضى أمسك، وعسى غدًا لغيرك".

وجاء في "حلية الأولياء"(١٦٨/٦) عن صالح بن بشير-رحمه الله- أنه كان يتمثل هذا البيت في قصصه:

وغائبُ الموت لا ترجون رجعته إذا ذوو سفرٍ من غيبةٍ رجعوا

ثم يبكي ويقول: هو والله السفر البعيد فتزوَّدوا لمراحله، فإن خير الزاد التقوى، واعلموا أنكم في مثل أمنيتهم؛ فبادروا الموت، فاعملوا له قبل حلوله؛ ثم بكى".

تزوَّد من التقوى فإنك لا تدري إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من فتى يمسي ويصبح لاهيًا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروسٍ زيَّنوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغارٍ يُرتجى طول عمرهم وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيحٍ مات من غير علة وكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدهر
وكم من ساكنٍ عند الصباح بقصره وعند المسا قد كان من ساكن القبر
فكن مخلصًا واعمل الخير دائمًا لعلك تحظى بالمثوبة والأجر
وداوم على تقوى الإله فإنها أمان من الأهوال في موقف الحشر

١- القصَّار: الصبَّاغ.

- **وبلغ قصر الأمل بالسلف الصالح مبلغًا عظيمًا، ولولا النقل الصحيح لقلنا: هذا ضرب من الخيال أو شيء محال.**

أخرج البخاري في "الأدب المفرد" عن الحارث النخعي -رحمه الله- قال:

"إن كان الرجل تُنتَج[٢] فرسه من الليل فينحرها غدوة، يقول: انا أعيش حتى أركب هذا؟ فجاءنا كتاب عمر، أن أصلِحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر متنفسًا".

يقول عاصم بن أبي النجود-رحمه الله-:

"كان لأبي وائل خُصٌّ من قصبٍ، فكان إذا غزا نقضه، وتصدَّق به، وإذا رجع أنشأ بناءه".

قصب: بيت من قصب أو شجر. (حلية الأولياء:١٠٣/٤) (صفة الصفوة: ٢٨/٣) (قصر الأمل: ص ٢٠٧)

- وجاء في كتاب "الزهد" لابن المبارك (ص٩٩) عن الحسن قال:

"كان أحدهم يتخذ القصبة، ويجعل فيها خيطًا يعلقها في أصبعه فيها ماء، يريد إذا بال أن يتوضأ، مخافة أن يأتيه أمر الله".

- جاء في كتاب "قصر الأمل" (ص٦٨) لابن أبي الدنيا عن مسكين بن دينار قال:

"كان شيخ متعبد، تجتمع إليه فتيانُ الحي ونُسَّاكهم، قال: فيذكرهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا، قال: يا إخوتاه، قوموا قيام قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم، خوفًا من خَطَفات الموكَّل بالنفوس، قال: فيَبْكِي - والله- ويُبْكِي".

- وعن سُحيم مولى بن تميم قال: " جلستُ إلى عامر بن عبد الله وهو يُصلِّي، فجوَّز في صلاته، ثم أقبل عليَّ، فقال: أرحني بحاجتك فإني أبادر! قلت: وما تبادر؟ قال: ملكَ الموت رحمك الله! قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته". (قصر الأمل: ص ١٠٣) (إحياء علوم الدين:٦٦٨/٤)

- ومرَّ داود الطائي، فسأله رجل عن حديث، فقال: "دَعْني، فإني إنما أبادر خروج نفسي ".

(قصر الأمل: ص ١٠٣) (إحياء علوم الدين: ٦٦٨/٤)

٢- تنتج: تلد

- ***جاء في كتاب "الزهد" الكبير للبيهقي (ص ٢٥٤):***

"كانت إحدى العابدات إذا أصبحت قالت: يا نفسُ هذا اليوم ساعديني يومي هذا، فلعلكِ لا ترين بياض يوم أبدًا، وإذا أمست، قالت: يا نفسُ هذه الليلة ساعدينى ليلتي هذه، فلعلك لا ترين سواد ليلة أبدًا، فمازالت تخدع وتدفع يومها بليلها، وليلها بنهارها حتى ماتت على ذلك".

- ***وكانت عُفيرة العابدة لا تضعُ جنبها إلى الأرض في ليل وتقول:***

"أخاف أن أؤخذ على غِرَّة وأنا نائمة ". (صفة الصفوة:٤/٣٤)

- ***وكانت أم الصهباء معاذةُ العدوية – زوجة صِلة بن أشيم- إذا جاء النهار قالت:***

"هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جنَّ الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فلا تنام حتى تُصبح". (صفة الصفوة:٤/٢٢)

- ***قال بكر بن عبد الله المُزني:***

"كانت امرأة متعبِّدة، وكانت إذا أمست قالت: يا نفس! الليلة ليلتك، لا ليلة لك غيرها! فإذا أصبحت قالت: يا نفس اليوم يومك، لا يوم لك غيره. فاجتهدت". (جامع العلوم والحكم:٢/٢٦٣) (قصر الأمل: ص٧٧)

- ***وكانت ماجدة القرشية تقول:***

" سُكَّانُ دارٍ أُوذنوا بالنقلة، وهم حيارى يركضون في المهلة كأنَّ المُرَاد غيرهم، أو التأذين ليس لهم، والمَعْنِيّ بالأمر سواهم. آهٍ من عقولٍ ما أنْقَصَها، ومن جهالةٍ ما أتمَّها، بُؤسًا لأهل المعاصي.. ماذا غُزُّوا به من الإمهال والاستدراج؟، وتقول: بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم، ولو نصبوا الآجال وطَوَوا الآمال خفت عليهم الأعمال". (صفة الصفوة:٤/٧٤)

- ***عن أبي المتوكِّل الناجي قال:*** " قال لي سليمانُ بن عبد قيس يا أبا المتوكِّل! قلت: لبيك، قال: عليك بما يُرغِّبك في الآخرة، ويزهدك في الدنيا، ويقربك إلى الله، قلت: وما هو يا عبد الله؟ قال: تقصُر عن الدنيا همتك، وتسمو إلى الآخرة بنيتك، وتُصدِّق ذلك بفعلك، قلت: فكيف لي ما أستعين به على ذلك؟ قال: تقصر أملك في الدنيا، وتكثر رغبتك في الآخرة، حتى تكون بالدنيا بَرِمًا، وبالآخرة كَرِثًا[١]، فإذا كنت كذلك لم يكن شيء أحب إليك ورودًا من الموت، ولا شيء أبغضَ إليك من الحياة".

(قصر الأمل: ص ٥٣-٥٤)

١- كَرِثًا: مهتمًا.

- ***وقال ابن أبي عَمْرة:***

يا أيُّها الذي قد غرَّه الأمل ... ودون ما يَأْمُلُ التنغيصُ والأجَلُ
ألا ترى أنما الدنيا وزينتُها ... كمتولِي الرَّكْب دارًا ثَمَ ارتحل
حُتوفها رَصَدٌ وعيشُهـا نَكَدٌ ... وصفوها رَنَقٌ[1] ومُلْكُها دُوَلُ[2]
تظلُّ تقرع بالرَّوعات ساكِنها ... فما يسوغُ له لِيْنٌ ولا جَذَلُ[3]
كأنه للمنايا والرَّدى عَرَضٌ ... تظلُّ فيه بناتُ الدهر[4] تنتقلُ[5]
المرء يسعي بما يسعى لوارثه ... والقبر وارثُ ما يسعى له الرجلُ

(قصر الأمل: ص ٧٣)

- ***وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص١٤٢) عن أبي بكر العدوي – رجل من قريش – قال:***

"كتب رجل من الحكماء إلى أخٍ له: "أخي، إياك وتأمير التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك، فإنه محلُّ الكَلال، وموئل الملال، وبه تُقطع الآمال، وبه تنقضي الآجال، وأنت (يا أخي) إن فعلت ذلك أدلتَ من عزمك، فاجتمع وهواك عليه فَعَلاه، واسترجعا من يديك من السآمة ما قد ولَّى عنك، ونفاه من جوارحك الحزن والمخافة، وأوثق الشوق والمحبة، فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من يديك بنافعه، ولا تجيبك إلى نفعٍ جارحةٌ، أي أخي فبادر، ثم بادر فإنك مُبَادرٌ بك، وأسرِعْ؛ فإنك مَسروعٌ بك، وكأن الأمر قد بَغَتَك، فاغتبطتَ بالتَّسرع، وندمت على التفريط ولا قوة بنا وبك إلا بالله."

- ***وأنشد أبو عبد الله بن أيوب:***

اغتنم في الفراغ فَضْلَ ركوع ... فعسي أن يكون موتك بَغْتَة
كم صحيحٍ رأيت من غير سقمٍ ... ذهبت نفسه الصحيحة فَلْتَه

(الزهد الكبير للبيهقي: ص ٢٣٥)

(١) رنق: كدر.
(٢) دول: ينتقل من حال لحال.
(٣) الجذل: الفرح.
(٤) بنات الدهر: مصائبه.
(٥) تنتقل: تستبق.

- ***وجاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص٢٣٧) عن منازل بن سعيد قال:***

"صلينا خلف جنازة فيها داود الطائي، وهو لا يراني خلفه، فقال: ﴿ . . . وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، ثم قال لنفسه: يا داود، مَن خاف الوعيد قَصر عليه البعيد، ومَن طال أمله قصُر عمله، وكل ما هو آت قريب، واعلم يا داود أن كل شيء يُشْغلك عن ربك فهو مشئوم، واعلم يا داود أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يندمون على ما يَخْلِفون ويفرحون بما يُقدِّمُون، فما عليه أهل القبور يندمون، عليه أهل الدنيا يقتتلون، وفيه يتنافسون، وعليه عند القضاء يختصمون، ثم نظر إليَّ فقال: لو علمتُ أنك خلفي لم أنطق بحرف". (حلية الأولياء: ٣٥٧/٧)، (وقصر الأمل لابن أبي الدنيا: ص ٧٨)

- ***وجاء في كتاب "صفة الصفوة" (١٥٣/٢):*** "أن صفوان بن سُليم لا يكادُ يخرج من مسجد النبي ﷺ، فإذا أراد أن يخرج بكى، وقال: أخاف ألا أعود إليه".

- ***وجاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (ص٦٠):***

"عن إبراهيم بن نشيط قال: قال لي أبو زُرعة الشامي: "لأقولنَّ لك قولًا ما قلته لأحدٍ سواك، ما خرجتُ من المسجد منذ عشرين سنة، فحدَّثتُ نفسي أن أرجع إليه "

- ***وجاء في كتاب "قصر الأمل" (ص٤٧):*** ***"وعن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال:***

"ما نمت يومًا قط فحدَّثتُ نفسي أني استيقظ منه".

- ***وجاء في "صفة الصفوة" (٣٢٠/٣)، و"جامع العلوم والحكم" (٢٦٣/٢) عن إسماعيل ابن زكريا – وكان جار الحبيب أبي محمد –رحمه الله– قال:***

"كنتُ إذا أمسيتُ سمعتُ بكاءَه، وإذا أصبحتُ سمعتُ بكاءه، فأتيتُ أهله فقلت: ما شأنه يبكي إذا أمسي، ويبكي إذا أصبح، قال: فقالت لي: يخاف – والله – إذا أمسى ألا يُصبح، وإذا أصبح ألا يُمسي"

(قصر الأمل: ص ٥٩)

- ***وكان حبيب يقول لزوجته:*** "إن متُّ في اليوم؛ فأرْسِلي إلى فلان يُغسِّلُني، وافعلي كذا، واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟، قالت: هذا يقوله في كل يوم"

(صفة الصفوة:٣٢٠/٣) (جامع العلوم والحكم:٢٦٣/٣)

- ***وعن سويد بن عمرو قال:*** ***"سمعت داود الطائي يقول:*** " لو أملتُ أن أعيش شهرًا، لرأيتني قد أتيت عظيمًا، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلق في ساعات الليل والنهار"

(صفة الصفوة: ٣٢٠/٣) (جامع العلوم والحكم:٢٦٣/٣)

- وجاء في "حلية الأولياء" (٦/٢٩٨)، و"صفة الصفوة" (٣/٣٥٤) عن الربيع بن عبد الرحمن قال: "قطعتنا غفلةُ الآمال عن مبادرة الآجال، فنحن في الدنيا حيارى، لا ننتبه من رقدة إلا أعقبتنا في أَثَرِها غفلةٌ.

فيا إخوتاه... نشدتكم بالله، هل تعلمون مؤمنًا بالله أغرَّ، ولِنِقَمِهِ أقلَّ حذرًا، من قومٍ هجمت بهم العَبر على مصارع النادمين، فطاشت عقولهم، وضلت حلومهم عندما رأوا من العِبر والأمثال، ثم رجعوا عن ذلك إلى غير قلعة ولا نقلة؟!

فبالله يا إخوتاه... هل رأيتم عاقلًا رضى من حالة نفسه بمثل هذه حالًا؟ والله عبادَ الله لتبلُغُنَّ من طاعة رضاه، أو لتُنْكِرنَّ ما تعرفون من حسن بلائه، وتواتر نعمائه.

إن تُحسِن أيها المرء يُحسَن إليك، وإن تُسيء فعلى نفسك بالعتب، فارجع، فقد بيَّن وأغدر وأنذر، فما للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

- جاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا: "عن عبيد الله بن شُميط بن عجلان قال: "سمعت أبي يقول: "إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي أيام ثلاثة، فقد مضي أمس بما فيه، وغدًا أمل لعلك لا تدركه، إنك إن كنتَ من أهل غدٍ، فإن غدًا يجيء برزق غدٍ، إن دون غدٍ يومًا وليلةً تُخترم فيه أنفسٌ كثيرة، لعلك المُخْتَرم فيها، كفى كل يوم همُّه، ثم قد حَمَلْتَ على قلبك الضعيف همَّ السنين والأزمنة، وهمَّ الغلاء والرَّخص وهمَّ الشتاء قبل أن يجيء الشتاء، وهمَّ الصيف قبل أن يجئ الصيف، فماذا أبقيتَ من قلبك الضعيف لآخرته؟! كل يوم ينقص من أجلك وأنت لا تحزن، وكل يوم تستوفي رزقك وأنت لا تحزن، أُعْطيت ما يكفيك، فأنت تطلب ما يُطغيك! لا بقليلٍ تقنع، ولا من كثير تشبع! وكيف لا يستبين بعالم جهلُه، وقد عجز عن شكر ما هو فيه، وهو مغترٌّ في طلب الزيادة؟ أم كيف يعمل للآخرة مَن لا ينقطعُ من الدنيا شهوته، ولا تنقضي منها نُهمته؟! فالعجب كل العجب لمَن يُصدَّق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور!

- ويقول شميط بن عجلان أيضًا في نفس المصدر (ص٥٨):

"طالت آمالكم، فجدَّدتُم منازلكم من الدنيا، وطيَّبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتُم! أولا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولا تعلمون أن ملكَ الموت موكل بآجالكم، لا يذهب عنه من المدة شيء؟

ثم يقول: "لا تكونوا – رحمكم الله – أقل شيء بالموت اكتراثًا، وأعظم شيء عن الموت غفلة، فما ينتظر الحيُّ إلا الموت! وما ينتظر المسافر إلا الظَّعن[1]".

١- الظعن: الارتحال.

- وكان شميط بن عجلان -رحمه الله- يقول أيضًا:

"أيها المغترّ بصحته، أما رأيت ميتًا قط من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المُهلة، أما رأيت مأخوذًا قط من غير عُدَّة؟ إنك لو فكَّرت في طول عمرك؛ لنسيت ما قد تقدَّم من لذاتك، أبا لصحة تغترُّون؟! أم بطول العافية تمرحون؟ أم للموت تأمنون؟ أم على ملك الموت تجترئون؟ إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك، ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغُصَص وندامة على التفريط، ثم يقول: "رَحِمَ الله عبدًا عمل لساعة الموت، ورَحِمَ الله عبدًا عَمِل لما بعد الموت، ورَحِمَ الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت".

(قصر الأمل لابن ابي الدنيا: ص ٦١-٦٢) (صفة الصفوة: ٣١-٣٤٧)

- يقول أبو العتاهية -رحمه الله-:

ألا أيها المغــرور مالك تلعــب تؤمل آمـالًا وموتك أقــرب

وتعلم أن الحـــــرص بحرٌ معبَّد سفينته الدنيا فإياك تعطـب

وتعلم أن الموت ينقضي مسرعًا عليك يقينًا طعمه ليس يعذبُ

- وقال زياد النميري - وكان من الزُّهاد العُبَّاد -رحمه الله--:

" لو كان لي من الموت أجلٌ أعرفُ مدَّتهُ، لكنتُ حريًّا بطول الحزن والكمد حتى يأتيني وقته، فكيف وأنا لا أعلم متى يأتيني الموت صباحًا، أو مساءً؟! ثم خنقته العَبْرةُ، فقام".

(حلية الأولياء:٦/٧٦) (قصر الأمل: ص ٦١)

ليس في كل ساعة من الدهر إلا للمنايا عليك فيها رقيبُ

كل يوم ترميك منها بسهم إن تخطئ يومًا فسوف تصيبُ

- يقول محمد بن النضر الحارثي:

"إلى الله أشكو طول أملي، وعند الله أحتسبُ عظيم غفلتي".

(قصر الأمل: ص ٤٧)

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

قال الغزالي -رحمه الله-: **"اعلم أن الناس في طول الأمل يتفاوتون:**

فمنهم: مَن يأملُ البقاء، ويشتهي ذلك أبدًا؛ **قال تعالى:** ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]

ومنهم: مَن يأملُ البقاء إلى الهَرَمِ- وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه - هو الذي يحبُ الدنيا حبًّا شديدًا

ومنهم: مَن يأمل إلى سَنَةٍ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، فلا يُقدِّرُ لنفسه وجودًا في عام قابِل،

ومنهم: مَن يأملُ مدَّة الصيف أو الشتاء، فلا يدَّخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف

ومنهم: مَن يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره وأمَّا للغد فلا.

كما قال ابن عمر -رضي الله عنهما-: **"إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح".**

ومنهم: مَن لا يجاوزُ أمله ساعةً.

ومنهم: مَن لا يُقدِّرُ البقاء أيضًا ساعة.

ومنهم: مَن يكون الموت نصب عينيه كأنه واقعٌ به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يُصلِّي صلاة مُوَدِّع.

قِصَرُ الأملِ صاحبه يبادر إلى العمل

ويظهرُ أثرُ قِصَر الامل في المبادرة إلى العمل، وكلُّ إنسان يدَّعي أنه قصير الأمل - وهو كاذب - إنما يظهر ذلك بأعماله، فهو يعتني بأسبابٍ ربما لا يحتاج إليها في سنة، فيَدُلُّ ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نُصْب العين، لا يغفلُ عنه ساعة؛ فليستعد للموت الذي يَرِدُ عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته، وفرح بأنه لم يُضيِّع نهاره، بل استوفى منه حظه وادَّخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح، وهكذا إذا أصبح.

ولا يتيَسَّرُ هذا إلا لمَن فَرَّغَ القلب من الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إن مات سَعِد، وإن عاش سُرَّ بحسن الاستعداد ولذة المناجاة، فالموتُ له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموتُ على بالك يا مسكين، فإن السير حاثٌّ بك وأنت غافلٌ عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلكم إلا بمبادرة العمل اغتنامًا لكلِّ نفسٍ أُمْهِلَت فيه ". اهـ مختصرًا.

السبب في طول الأمل وعلاجه

ثم قال الغزالي -رحمه الله- في "إحياء علوم الدين" (٤/٤٨٥،٤٨٦):

"اعلم أن طولَ الأمل له سببان، **أحدهما**: الجهل، **والآخر**: حب الدنيا"

- **أمَّا حب الدنيا**: فهو أنه إذا أَنِسَ بها وبشهواتها ولذَّاتها وعلائقها، ثقُل على قلبه مفارقتُها، فأمتنع قلبُه من الفكر في الموت الذي هو سببُ مفارقتها، وكلُّ مَن كَرِهَ شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغوفٌ بالأماني الباطلة، فيُمنِّي نفسه أبدًا بما يُوافقُ مُرادَه، وإنما يُوافق مراده البقاءُ في الدنيا، فلا يزالُ يتوهَّمه ويقدِّرُه في نفسه، ويقدِّر توابعَ البقاء، وما يحتاجُ إليه من مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاء ودوابَّ – وسائر أسباب الدنيا –، فيصيرُ قلبُه عاكفًا على هذا الفكر موقوفًا عليه، فيلهو عن ذكر الموت، فلا يقدِّرُ قُربَه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّفَ، ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبرُ ثم تتُوب، وإذا كبِرَ، فيقول: إلى أن تصير شيخًا، فإذا صار شيخًا، قال: إلى أن تفرُغَ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السَّفْرة، أو تفرُغَ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرُغَ من قهر هذا العدوِّ الذي يشمتُ بك، فلا يزال يُسوِّف ويُؤخِّرُ، ولا يخوضُ في شُغل إلا ويتعلَّقُ بإتمام ذلك الشغل عشرةُ أشغال أُخَر، وهكذا على التدرج يؤخِّر يومًا بعد يومٍ، ويُفضي به شغلٌ إلى شغل – بل إلى أشغال – إلى أن تختطفَه المَنِيَّةُ في وقتٍ لا يحتسبهُ، فتطولُ عند ذلك حسرته، وأكثرُ أهل النار صياحُهم من "سوف ".

وما أحسن قول يحيى بن معاذ الرازي -رحمه الله- حين قال:

"الدنيا خمرُ الشيطان، مَن سكِر منها لم يفق إلا في عسكر الموت، نادمًا مع الخاسرين"

وقال بعض الحكماء:

"عَجِبْتُ ممَّن الدنيا مولية عنه، والآخرة مقبلة إليه؛ يشتغل بالمدبرة، ويعرض عن المقبلة"

فإياكم أيها الأحبة... و"**سوف**" "**فما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل**". **كما قال الحسن البصري** – رحمه الله–، وصدق – والله – الحسن فيما قال، فالأمل يُكسِل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان، كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة. (الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي: ٧/١٠)

وقد قيل: من استطال الطريق ضعف مشيه (بدائع الفوائد:٣/١٨٠)

• **وأما الجهل**: فهو أن الإنسان قد يعوِّل على شبابه، فيستبعدُ قربَ الموت مع الشباب، وليس يتفكَّرُ المسكين أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أقل من عُشْر رجال البلد، وإنما قَلُّوا لأن الموت من الشباب أكثر، فإلى أن يموت شيخ، يموت ألف صبي وشاب، وقد يستبعد الموتَ لصحته، أو يستبعد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غيرُ بعيد، وإن كان ذلك بعيدًا فالمرضُ فجأة غير بعيد، وإذا مرض لم يكن الموتُ بعيدًا. ولو تفكَّر هذا الغافلُ، وعَلِم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شبابٍ وشيبٍ وكهولةٍ، ومن صيفٍ وشتاءٍ وخريفٍ وربيعٍ، من ليل ونهار؛ لَعَظُم استشعاره، واشتغل بالاستعداد له، ولكنَّ الجهل دعاه إلى طول الأمل، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبدًا يظنُّ أن الموت يكون بين يديه، ولا يُقدِّر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبدًا يظنُّ أنه يُشيِّعُ الجنائز، ولا يُقدِّر أن تُشيَّعَ جنازته؛ لأن هذا قد تَكرَّرَ عليه وألفه وهو مشاهدةُ موت غيره، فأما موتُ نفسه، فلم يَأْلَفْهُ، ولم يتصوَّر أن يألفه، فإنه لم يقع، وسبيلُه أن يقيس نفسَه بغيره، ويعلم أنه لابد وأن تُحمَلَ جنازته ويُدفَن في قبره، ولعل اللَّبِن الذي يُغطَّى به لحده قد ضُرِب وفُرِغ منه وهو لا يدري، فتسويفه جهل محض" اهـ بتصرف واختصار

• علاج طول الأمل:

قال الغزالي –رحمه الله–: **"وإذا عرفت أن سبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا، فعلاجه دفع سببه:**

أما الجهل: فيُدفع بالفِكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حُب الدنيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العُضال الذي أعيا الأوَّلين والآخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا بالإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصُلَ له اليقين بذلك، ارتحل عن قلبه حبُّ الدنيا، فإن حُبَّ الخطير هو الذي يمحُو عن القلب حب الحقير. فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسةَ الآخرة، استنكف أن يلتفتَ إلى الدنيا كلها، وإنْ أُعْطَى مُلكَ الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مُكدَّرةٌ مُنَغَّصٌ، فكيف يفرحُ بها أو يترسَّخُ في القلب حبُّها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسألُ الله تعالى أن يُرِيَنا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده. ولا علاج من تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى مَن مات من الأقران والأشكال، وأنهم كيف جاءهم الموتُ في وقتٍ لم يحتسبوا. أمَّا مَن كان مُستَعدًّا فقد فاز فوزًا عظيمًا، وأما مَن كان مغرورًا، فقد خسِر خُسْرَانًا مبينًا. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه، وليتدبَّر أنها كيف تأكلُها الديدان لا محالة؟ وكيف تتفتَّت عظامها؟ فما على بدنه شيءٌ إلا وهو طُعمةُ الدود، وما له من نفسه إلا العلمُ والعمل الخالص لوجه الله تعالى. وكذلك يتفكَّر في عذاب القبر وسؤال منكَر ونكير، وفي الحشر والنشر وأهوال القيامة، وقرْع النداء يوم العرض الأكبر، فأمثالُ هذه الأفكار هي التي تُجدِّد ذكر الموت على قلبه، وتدعوه إلى الاستعداد له " اهـ بتصرف واختصار.

وصايا قبل المنايا

الوصية الأولى: اغتنم نعمة الصحة والفراغ قبل السقم والانشغال:

فليس في الوجود أغلى من الوقت، وليس في الحياة نعمة بعد الإيمان أعظم من نعمة الصحة والفراغ.

أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:

" نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ ".

يقول ابن الجوزي كما في "فتح الباري" (١١/٢٣٤):

"قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعت (أي الصحة والفراغ) فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها عن الآخرة، فمَن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبون، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون؛ لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهموم.

اغتنم في الفراغ فضل ركوعٍ — فعسى أن يكون موتُك بَغْتة

كم صحيحٍ رأيت من غير سُقْمٍ — ذهبتْ نفسُه السليمةُ فَلْتة

جاء في كتاب "قصر الأمل" (ص١٠٥) لابن أبي الدنيا عن عبد الواحد عن صفوان قال:

"كنا مع الحسن في جنازة، فقال: رحم الله امرًا عمل لمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور، فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب".

أنت في غفلة الأمل — لست تدري متى الأجل؟

لا تغرنَّك صحة فهي — مـــن أوجـع العـــلـــل

فاعمل الخير واجتهد — قبل أن تـمْنَـع العـمـل

يقول سعيد بن جبير -رحمه الله-: "كل يوم يعيشه المؤمن غنيمة "

الوصية الثانية: اتقِ اللّه فيما بقي من عمرك يغفر لك ما قد مضى:

قال الفضيل بن عياض-رحمه الله- لرجل: "كم عمرك؟ فقال الرجل: ستون سنة، قال الفضيل: إذن أنت منذ ستين سنة تسير إلى الله توشك أن تصل، فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فقال الفضيل: يا أخي هل عرفت معناها، قال الرجل: نعم. عَرِفت أني لله عبد وأني إليه راجع، فقال الفضيل: يا أخي مَن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع؛ عرف أنه موقوف بين يديه، ومَن عرف أنه موقوف عرف أنه مسئول، ومَن عرف أنه مسئول فليُعدّ للسؤال جوابًا، فبكى الرجل فقال: يا فضيل وما الحيلة؟ قال الفضيل: يسيرة، قال الرجل: وما هي يرحمك الله، قال الفضيل: أن تتقي الله فيما بقي؛ يغفرُ الله لك ما قد مضى وما قد بقي.

يقول أحمد بن عاصم الأنطاكي: "هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يُغْفَر لك ما مضى"

إلـهـي لا تعذبـني فـإنـي	مُقِرّ بالذي قد كـان مني
وما لي حيلة إلا رجائي	لعفوك إن عفوت وحسن ظنِّي
وكم من ذلةٍ لي في الخطايا	وأنت عليّ ذو فضل ومنِّ
أُجن بزهرة الدنيـا جنونـًا	وأقطع طول عمري بالتمني
يظن النـاس بي خيرًا وإني	لشر الخلق إن لم تعفُ عني

الوصية الثالثة: حاسِب نفسك قبل أن تُحاسب:

فلقد أمرنا الله ﷻ بمحاسبة النفس؛ **فقال تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]

فالله تعالى يأمر المؤمنين بالتقوى، ويحثهم على مداومة طاعته، ويدعو كل مؤمنٍ إلى مراقبة نفسه، ومراجعة حسناته وسيئاته، عسى أن يتزوَّد المحسن من الطاعات، ويتدارك المسيء ما مضى وفات، ويعلم المُقصِّر أن أمامه يومًا يُحاسَب فيه، وربَّا هو ملاقيه فيجتهد ويجد ويعمل ويكد.

وقد رُوي في الحديث: **"الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني".** (أخرجه الترمذي والحاكم بسند فيه مقال)

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: **"حاسِبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا، وتهيَّئوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ".**

فالمُفرِّط المُقصِّر يقف مع نفسه وقفة صدق، ***ويقول لها:***

يا نفس قد أزف الرحيل وأظلك الخطــب الجليل
فتـــأهبي يـــا نفس لا يلعب بك الأمل الطويل
فلتنزلـــن بمنزلٍ ينسى الخليــل فيـــه الخليـل
ولـــيركبن عليك فيـــه مـــن الثرى ثقل ثقيل

ويحك يا نفس... تنشغلين بعمارة دنياك مع كثرة خطاياك كأنك غير مرتحلة عنها.

أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيرًا؛ فأصبح جمعهم بورًا، وبنوا مشيدًا؛ فصار بنيانهم قبورًا، وأمَّلوا بعيدًا؛ فصار أملهم زورًا.

ويحك يا نفس... أما لك بهم عبرة، أما لك إليهم نظرة.

أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة، وأنت من المخلدين.

ويحك يا نفس... هيهات... هيهات ساء ما تتوهمين

ما أنت إلا في هدم عمرك؛ منذ أن سقطت من بطن أمك.

ويحك يا نفس... تُعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي فارة معرضة عنك.

فكم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمل غدًا لا يبلغه.

ويحك يا نفس... ما أعظم جهلك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة أو النار، وأنت سائرة إلى أحدهما.

فما لك تفرحين وتمرحين وباللهو تنشغلين؟! وأنت مطلوبة لهذا الأمر الجسيم، عساك اليوم أو غدًا بالموت تختطفين.

ويحك يا نفس... أراك ترين الموت بعيدًا والله يراه قريبًا، فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبَّرين؟

الوصية الرابعة: بادر بالأعمال الصالحة قبل أن يأتيك الأجل:

اعلم أن قصر الأمل مع حب الدنيا متعذر، وانتظار الموت مع الانكباب عليها غير متيسَّر، فالقلب إذا امتلأ بأحدهما فإنه لا يسع الأخرى، كالدنيا والآخرة والمشرق والمغرب، بقدر ما تقترب من أحدهما تبتعد من الأخرى، فقصر الأمل يجعل الإنسان يسارع بحسن العمل، وبهذا يقترب من الآخرة، ويبتعد عن الدنيا.

- **والنبي ﷺ كان يحث على المبادرة للعمل الصالح قبل أن يُفتن الإنسان أو يُشغل أو يموت.**

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا".

وأخرج ابن ماجه والبيهقي من حديث جابر ﷺ قال:

"خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "يا أيها الناس، توبوا قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم، بكثرة ذكركم، وكثرة الصدقة في السر والعلانية؛ تُرْزقوا وتُنْصَروا وتُجْبَرُوا ". (ضعيف الجامع: ٦٣٨٦)

وأخرج الترمذي والحاكم بسند فيه مقال من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"بادِروا بالأعمال سبعًا: هل تنظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدَّجَّال، فشر غائب ينتظر أو السَّاعَة، فالسَّاعَة أدهى وأمر". (ضعيف الجامع: ٢٣١٥)

وأخرج الحاكم في "المستدرك" والبيهقي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: **"اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".** (صحيح الجامع: ١٠٧٧)

يا عجبًا... أَنِسَ بالدنيا مفارُقها، وأَمِنَ النار واردُها، وكيف يغفل من لا يغفل عنه؟!، كيف يفرح بالدنيا مَن يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره؟

كيف يلهو مَن يقوده عمره إلى أجله، وحياته إلى موته؟!

المبـــادرة... المبـــادرة

وقال الحسن -رحمه الله- في موعظته:

"المبادرة المبادرة! فإنما هي الأنفاس، لو قد حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقرَّبون بها إلى الله ﷻ رحم الله امرًا نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]

ثم يبكي ويقول: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك "

(قصر الأمل: ص ١٠٦)

وعن محمد بن علي الباقر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]

قال: النفس. (صفة الصفوة: ١٥٩/٣) (قصر الأمل: ص ١٢٦)

(ونقل هذا القول عن ابن عباس -رضي الله عنهما- كما في "تفسير ابن كثير" :١٣٧/٣)

وكان حسان بن أبي سنان يقول: " بادر انقطاعَ عملك، فإن الموت إذا جاء انقطع البرهان".

(قصر الأمل: ص ١١١)

وقال المنذر أبو يحيى: سمعتُ مالك بن دينار يقول لنفسه: " ويحك! بادري قبل أن يأتيك الأمر! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر!، قال: فسمعته يقول ذلك ستين مرة"

(قصر الأمل: ص ١٠٥)

وصدق أبو محمد حبيب العجميّ حيث قال: "لا تقعدوا فُرَّاغًا؛ فإن الموت يطلبكم".

(قصر الأمل: ص ١٠٥)

قال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله- لأبي حازم:

"أوصني: فقال له أبو حازم: اضجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك السَّاعَة، فخُذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك السَّاعَة فدعه الآن، فلعل تلك السَّاعَة قريبة ".

فلا ترجِ فعل الخير إلى غدٍ لعل غدًا يأتي وأنت فقيد

وكان أبو معاوية الأسود يقول لنفسه: "إن كنت يا أبا معاوية، تريد لنفسك الجزيل، فلا تنامنَّ الليل ولا تقيل، قدِّم صالح الأعمال، ودع عنك كثرة الأشغال، بادر ثم بادر قبل نزول ما تُحاذر، ولا تهتم بأرزاق من تُخَلِّف، فلستَ أرزاقَهم تُكَلَّف". (حلية الأولياء: ٢٧٢/٨) (صفة الصفوة:٢٧١/٤)

قال بعضهم يُوبِّخ نفسه ويعظها:

"يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجهتدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشققت، وبالأمور وقد تحقَّقت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت، **قال تعالى وتقدَّس:** ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]

يا نفس أما الورعون فقد جدُّوا، وأما الخائفون فقد استعدُّوا، وأما الصالحون فقد فرحوا وراحوا، وأما الواعظون فقد نصحوا وصاحوا. العلم لا يحصل إلا بالنَصَبِ، والمال لا يُجمَع إلا بالتعب.

أيها العبد الحريص على تخليص نفسه، إن عزمت فبادر، وإن هممت فثابر، واعلم أنه لا ينال العِزَّ والمفاخر إلا مَن كان في الصف الأول.

جاء في "حلية الأولياء" (٩/٦٩) و "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (ص٩٢) عن أبي زكريا التيمي قال: "بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أُتي بحجر منقور[١]، فطلب من يقرأه، فأتي بوهب بن منبه؛ فقرأه؛ فإذا فيه: "ابن آدم لو رأيت قرب ما بقي من أجلك، لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غدًا ندمك، لو قد زلَّت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبانَ منك الولد القريب، ورفضك الوالدُ والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاءً شديدًا".

***أحبتي في الله*... مَن خاف هجوم الأجل، قصر الأمل، وبادر بحسن العمل.**

فقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **" مَن خاف أدلج [٢]، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة ".**

أدرك الصالحون خطورة الأمر، فشمَّروا عن ساعد الجد، وأيقنوا أن الحياة الحقيقة والسعادة الأبدية، إنما هي حياة الأبرار في دار الرحمن حيث جنات النعيم، فكان كل ما يشغل بالهم ويسيطر على وجدانهم أن يبذلوا قصارى جهدهم؛ ليفوزوا بهذا النعيم؛ وينعموا برؤية وجه الله الكريم.

فها هو ابن عمر–رضي الله عنهما–: "كان يقوم من الليل فيتوضأ ويُصلِّي، ثم يغفو إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويُصلِّي، ثم يغفو إغفاء الطير، ثم يقوم يُصلِّي، يفعل ذلك مرارًا".

١- منقور: مكتوب فيه، يُقال: نُقر في الحجر، أي كتب فيه.
٢- أدلج: سار في أول الليل.

واجتهد الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري ﷺ قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له:

"لو أمسكت أو رفقتَ بنفسك بعض الرفق؟، فقال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربتْ رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها؛ والذي بقي من أَجَلي أقل من ذلك! قال: فلم يزل على ذلك حتى مات!"

(قصر الأمل: ص ١٠٨)

وكان أبو مسلم الخولاني -رحمه الله- يقول كما في "صفة الصفوة":

"لو رأيت الجنة عيانًا ما كان عندي مستزاد، ولو رأيت النار عيانًا ما كان عندي مستزاد".

وقال أبو حمزة -رحمه الله- كما في "تذكرة الحفاظ":

"لو قيل لصفوان بن سليم السَّاعَة غدًا، ما كان عنده مزيد عمل".

وكان عمير بن هانئ -رحمه الله-: "يُسبِّح كل يوم مائة ألف تسبيحة".

ونحن ربما يمرُّ اليوم ولا نُسبِّح حتى تسبيحة واحدة في اليوم، ***في حين أن النبي ﷺ قال فيما يرويه الترمذي:*** **" مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده؛ غُرِست له نخلة في الجنة "**.

فكم ضيَّعنا من نخيل؟

وقال أبو بكر بن عياش -رحمه الله-:

"ختمتُ القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة".

وهكذا بادر القوم بالعمل؛ مخافة أن يفاجئهم الأجل؛ فبذلوا النفس والنفيس؛ لأنهم يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى.

قال اللبيدي -رحمه الله-:

"وجدت بعد موت أبي إسحاق الجينياني -رحمه الله- رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه: رجل وقف له هاتف، فقال له: أحسن أحسن عملك، فقد دنا أجلك، فقال لي ولده عبد الرحمن: إنه كان إذا قصر في العمل، أخرج الرقعة فنظر فيها ورجع إلى جدّه".

وقال سفيان الثوري -رحمه الله-: "رأيت شيخًا في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى؛ لو أتاني ما أمرتُه بشيء، ولا نهيتُه عن شيء، ولا لي على أحدٍ شيء، ولا لأحد عندي شيء!"

(قصر الأمل: ص ٧١) (إحياء علوم الدين: ٦٦٣/٤)

وقال القعقاع بن حكيم: " لقد استعددتُ للموت منذ ثلاثين سنة! فلو أتاني ما أحببت تأخيرَ شيء عن شيء ". (قصر الأمل: ص ٧١)، (إحياء علوم الدين:٤/٦٦٣)

مازال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه مستيقظا متشمرًا ذا أُهبة لم تلهه الآمال

بل كانوا يحرصون على التزوُّد من الطاعة حتى في آخر لحظات حياتهم.

يقول أبو محمد الجريري –رحمه الله–: "كنت واقفًا على رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يوم الجمعة، وهو يقرأ القرآن، فقلت له: يا أبا القاسم ارفق بنفسك، فقال: يا أبا محمد، رأيت أحدًا أحوج مني في هذا الوقت؟ هو ذا تُطْوَى صحيفتي"

وقال بشر بن عبد الله النهشلي: "دخلنا على أبي بكر النهشلي وهو في الموت، وهو يومئ برأسه – يرفعه ويضعه – كأنه يُصلِّي، فقال له بعض أصحابه: في مثل هذه الحال رحمك الله؟ قال: إنني أبادر طيَّ الصحيفة!" (سير أعلام النبلاء: ٧/٣٣٣)، (وقصر الأمل: ص١١٣)

بل انظر لهذا الموقف الجليل لعُمير بن الحمام

فقد أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال:

"إنه في غزوة بدر لما دنا المشركون قال النبي ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فقال عُمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض، قال: نعم، فقال عمير: بخ..بخ [1]، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخ... بخ، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة؛ فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قُتِلَ".

١- بخ بخ: كلمة تُقال لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

الخـــاتـمـة (نسأل الله حسنها)

أُذَكِّرُكُم بقول رب العالمين، **حيث قال في كتابه الكريم:**

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]

فالدنيا دار غرور، فمن شُغِل بها فهو المغرور، والأيام تسرع وتدور، والعمر يذهب ولا يعود، ومع كل طلعة شمس ينادى اليوم ويقول: " يا ابن آدم أنا يوم جديد، وعلى ما تعمل فيّ شهيد، وإذا ذهبت عنك لم أرجع إليك، فقدِّم ما شئت تجده بين يديك، وأَخِّر ما شئت فلن أعود أبدًا إليك".

فغفل كثيرٌ منا عن هذا؛ فأخذ يلهث وراء الملذات، والانغماس في الشهوات، والوقوع في المحرمات؛ فتضيع الأوقات، وتفنى الأعمار، ويأتيه الموت فجأة، فيجتمع عليه سكرة الموت، مع حسرة الفوت،

فيصرخ قائلًا: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ . . .﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]

فيا غافلًا عن نفسه! أمرك عجيب، يا قتيل الهوى! داؤك غريب.

يا طويل الأمل ستدعى فتجيب، وهذا عن قليل، وكل آت قريب، هلا تذكَّرت لحدك، وكيف تبيت وحدك، ويباشر الثرى خدك، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحبُّ بعدك، ناسيًا عنه بعدك؟!

والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى وحتى متى تترك رشدك؟!

أما تحسن أن تحسن قصدك؟! الأمر جد مجد، فلازم جدك. (التبصرة:٢/٢٠٦)

أخي الحبيب... الموت أول وارد عليك، والقبر أقرب منك إليك، فاستعد لسفرك، وتأهَّب لرحيلك، وحول جهازك من المنزل الذي أنت عنه ظاعن؛ إلى المنزل الذي أنت فيه مقيم، ولا تغترّ بما أغترّ به البطالون قبلك، من طول آمالهم، فقصروا عن ربهم وزادهم، فندموا عند الموت أشد الندامة، وأسفوا على تضييع العمر أشد الأسف، فلا الندامة عند الموت تنفعهم، ولا حمدوا أنفسهم على التقصير.

(التبصرة لابن الجوزي: ١/٣٨٦)

نـــــــــداء:

أيها السكـران بالآمـال	**قد حان الرحيلُ**
ومشيب الرأس والفَوْدَين	**للـمـوت دليـلُ**
فانتبه من رقدة الغفلة	**فالعمر قليـلُ**
واطرح سوف وحتى	**فهما داءٌ دخيلُ**

يقول خليد القصري: "كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعدًا! وكلنا قد أيقن بالجنة، وما نرى لها عاملًا! وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى لها خائفًا! فعلام تعرِّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول واردٍ عليكم من الله، بخير أو بشر! يا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا". (صفة الصفوة:٣/٢٣١)

إلـهـي لا تعذبنـي فـإنـي مُقِرّ بالذي قد كـان مني
وما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظنِّي
وكم من ذلةٍ لي في الخطايا وأنت عليّ ذو فضل ومنِّ
أُجن بزهرة الدنيـا جنونـًا وأقطع طول عمري بالتمني
يظن النـاس بي خيرًا وإني لشر الخلق إن لم تعفُ عني

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك